تحرير جيل من الوهم ...

بقلم محيي الدين محمد

العقل والعـــادة :

في كل بضع سنوات تحتاج الحياة الى وقفة صغـــيرة للتأمل . كيف عشنا ، وما هي الامال التي حققناها ، وكيف تغلبنا على العقبات ، وما هي آمالنا القادمة ، وكيـــف استطعنا ان نحول انفسنا بالنظر الى الظروف ، وباخضاعها؟

كل هذه الاسئلة المثارة تقفز مرة واحدة الى الذهـن بعد عشرة اعوام او اقل من العمل المتواصل في ديمومـة مستمرة . وهذه ليست مجرد تجديد لحيويتنا او لنشاطنا، اذ يمكن للتجديد ان ينشأ بفضل الظروف ذاتها ، وبـلا تدخل من الارادة ، وذلك ما نسميه ضربة الخطر . ان هذه الوقفة هي تغيير كلي لدمائنا وانسجتنا ، انها انقذاف فـي مجرى جديد . تحول كامل ..

القليل النادر من الاشخاص يملكون عبقرية الوقفـة الصغيرة ، والملايين يسيرون في حياتهم منذ بدايتها حتى خاتمتها الملفوفة بالموت في مسار هادىء ثابت ومتوحد ، بلا اسئلة ولا صراعات : كلهم يصدرون عن هذه القطيعيـة التي تفترض من البشر ان ينقادوا وان يطيعوا وان يلتزموا بالقواعد الموضوعية ..

انت اسمك حسن او تيسير او هاشم ، او ليلى : لـك رأس تنفرد به وسط جميع البشر ، ملامح خاصة ، انـف مقوس او معتدل . اذنان معينتان . عينان عسليتان . لك مخ بداخل راسك ، لم يدخل رأس مخلوق آخر من قبل . ارادتك محبوسة داخل طاقات جسمك . تفكر كيفما تشاء : في هذه الجميزة ، في ابنك العاصي ، او صديقتك الجديدة . لك مطلق الحرية في ان تفكر . انك انت ، لانك لست احدا سواك . هذا انت . انسان منفصل بكـــل تكوينه وتشكيله وسماته واعصابه عن الاخرين . والمفروض انك في مجتمع معين : في قرية او صحراء او مدينة . في هذا المكان انت تتصل بالاخرين ، وتعاملهم على اساس منفعتك الخاصة مباشرة ، ومنفعة الجماعة بشكل غـــير مباشر . انت تعيش معهم في هذا الرباط المقدس الذي اسمه : الوجود الاجتماعي ، لانه عسير عليك ان تعيـش وحدك ، وحتى اذا انفصلت عن الاخرين ، فانت بشكل ما ، مرتبط بالاخر الذي يطحن لك القمح ، وبالاخر الذي ينسج لك ملابسك ، وبالثالث الذي يطبع لك الكتب في وحدتك. انك اسير فوق هذه الاض التي تدعي ملكيتها ..

هذا انت ....

القضية الاولى ، هي انك منحوت من صخرة خاصة ، وبشكل لم ينحت به احد قط . انك معدن خالص ،ومنعدم المثيل بالصورة التي في كيانك . انك نادر ومستحيـل الوجود مرة اخرى ..

الحياة تعني العمل والاصدقاء والحبيبةوالهواية والرياضة والنوم ، والموت ايضا ... تعني انك تخبر كل شريحة منها على حدة ، وتفهمها وتذوقها وتغامر في تجاربها الواسعة، وتعيش وتسعد ثم تموت .. القضية الثانية هي ان الحياة معناها الانغماس ــ في ــ الاخرين ، وليست في التصوف والطبيعة .. لنتذكر القضية الاولى : انك انت . خاص وفريد . القضية الثانية : انت ــ كانسان فريد ــ عليـك ان تعيش مع آخرين فريدين مثلك . كل واحد فيهم هو ذات خاصة مقطوعة من صلب خاص .. لنقف هنا قليلا . الحياة منذ القديم كانت تعاش بتجارب منعزلة : يعني لو حضرت الوفاة واحدا من البشر ، فانه يموت ، وتمـوت معه تجاربه الخاصة جدا . وعلى الانسان الاخر الـذي يريد النصيحة ان يبدأ منذ البداية الاولى ، فيغامر فـي نفس تيار التجربة التي عاناها المتوفى .. اي يبدأ مـن البدايات ذاتها ..

واحتاجت البشرية ان تفيد من تجارب الناس فابتكرت الذاكرة والاخلاق والفلسفة والعلوم : فانك اذا اردت ان تطبخ دجاجة ، لا تؤلف طبخة خاصة ، وانما تفيد مـن تجارب الاخرين ، فتصنع العملية كانك خبير فيها ، كانك مخترعها . وكذلك في العلوم كحاصل ضرب كذا في كذا ، او النتائج المختبرية لاضافة كذا الى كذا ... صحيح ان المجال في الكيمياء وكل العلوم الاخرى مفتوح دوما لاضافة علاقات جديدة واكتشافات اخرى ، ولكنه صحيح ايضا ان كل اكتشاف واختراع ، يضافان الى سلسلة المتحصلات البشرية ، ليصبح علمنا وخبرتنا ..

القضية الاولى : انت فريد . الثانية : انت تعيش فـي وسط من المتفردين . الثالثة : انت تفيد من خبـــرات الاخرين ، وتجاربهم .

القضية الرابعة اخطر القضايا واشدها اهمية : ما هـو الحد الذي يجب ان تقف عنده ما نسميه الخبرات ، بـين ان تنفي عنا ذواتنا ، وبين ان تفيدنا .؟ وبعبارة أخرى اسلم: كيف نفرق بين الخبرات التي نفيد منها ، وبين الخبـرات التي تعطلنا ؟!

يمكن ان نقول عن الدين ، انه خبرات لمصلحتنا ، كمـا

يمكن ان نقول عن القانون الفرنسي كذلك ، وكما يمكن ان نقول ايضا ان اكل البيض الفاسد (كما يفعل الصينيون) هو خبرة لمصلحتنا ..

كل هذه الخبرات يمكنها ان تصبح كذلك . ولكن . اذا شاء احدنا ، ممن تناولوا البيض الفاسد ورموه لفورهم ، تقززا واستقباحا لطعمه ، اذا شاء هذا الرجل ان يرفض هذه الخبرة ، فباسم ماذا يرفضها ، ولماذا قبلها الصينيون، ورفضهـا هو .. ؟

لا تقولوا ان ظروف المعيشة في الصين تختلف عن ظروف المعيشة هنا ، بخلاف الذوق في الطعام والشراب ، لانكم لو قلتم ذلك ، سقطتم في الشرك المعد .. لان الاختلاف في الذوق لا يعني ان تشريح افواه الصينيين يؤكد اختلافها عن افواهنا ، ولكنه يعني الوقوع في العادة، واذا اقتنعتم بذلك ، فاصبروا قليلا ، فما اتكلم الا عنها ..

عادة ثانية : قام جالليو وحده ضد العالم المسيحي وقتئذ ، ليؤكد ان الارض تدور حول الشمس ، وان الشمس جرم ثابت . في ادمغة المسيحيين الافاضل ، رأي واحد فقط ، هو ان الارض مسطحة كما تقول التوارة (اي الخبرات القديمة) واذن .. فالى الحريق ياجالليو ، لانك ضد عاداتنا ...

عادة ثالثة : سأل زنجي ذكي ، احد المبشرين : اتعني يا سيدي ان تقول لي بان (نوحا) قد بنى بنفسه سفينة ، وانه حشد لها الطيور والسباع والحيوانات الصغيرة والحشرات الدقيقة التي تتعذر رؤيتها ، وكل حي في العالم ..؟! واجاب المبشر : نعم يا بني ..! وتعجب الرجل الذي عاش عمره في الغابة ، ويعرف عن انواع الحيوانات والطيور والحشرات اكثر مما كان يعلم نوح ، والقى قنبلته : ولكن يا سيدي ، اذا كان نوح قد جمع من كل زوجين اثنين ، وانت طبعا تعرف ان الاسد مثلا يفترس الغزال وحمار الوحش ، فكيف امكن لهما ان يعيشا معا ؟ واجاب المبشر : انها قدرة الله يا بني ..! ولكن الزنجي ما زال متشككا : اذن فماذا كان يأكل الاسد اثناء هذه الرحلة اذا علمت انه لا يأكل سوى اللحم .؟ وماذا كان يأكل الصرصور ، ونقار الخشب ، والفأر ، وضفدع الغابة ، والشمبانزي ، والبقر .؟

وبهت المبشر ، واخاله قال في نفسه : هذا رجل لاينفع المسيحية لانه بربري .. يعني ان القضية يجب ان تؤخذ بالعماء ، لانها من المعلومات التي ورثناها عن اجدادنا ..

وهنا يدخل هذا الكائن الممتاز الذي يميزك عني ، والذي اسمه العقل .

هذا الحد القاطع الذي يسمي كل شيء ، ولا يترك شيئا بدون اسم،هذا القانون الذي يقول لك : هذا خطأ لان نتيجته هي كذا وكيت . هذا العملاق الذي لا يخشاك ، ويخطرك في كل دقيقة بان عليك ان تفعل هذا او ذاك . بعضنا يخاف هذا الكائن الجبار . كثير منا يخشونه لانه يفترض منا ان نكون على صلابته ، وان نحارب دوما اثناء وجودنا. ان نشكل حياتنا وان نقذف بها في حدود الاستحالة والامكان . انه يرفض ويستحي ان نلجأ الى احدللاستشارة. لانه يمكن له ان يعطينا نتائج سليمة . الكثير يخافون عقولهم ، لان من يتمسك باستعماله ، تصبح حياته ممتلئة حتى قمتها بالفعل والنشاط والحركة ، والتفكير في كل شيء . لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا كان على ان اقوم بذلك ، ولا اقوم بسواه ؟..

انني اولد فيحي عابدين،وسط القاهرة،في بيت كلاسيكي قديم . العب الطوق والكرة ، ولي بعض اهتماماتي الادبية، كقراءة ارسين لوبين ، وروكامبول ، وفومانشو الجبار . انني اكبر في السن وازداد نضجا ، واتحول من روايات الجيب ، الى توماس مان والبير كامو واندريه جيد . اعمل في شركة تلغراف . لي اصدقائي من الادباء ومن غير الادباء . واعيش حياتي الخالية من اي معنى وهدف ، كما كان سيعيشها اي واحد من اي مكان تختاره انت جزافا : يذهب لعمله في الصباح او المساء تبعا لنوبته في العمل ، ثم يتلفن لصديقه « غالب او علاء .. » اريد ان استمع الى بعض رباعيات بيتهوفن الوترية .. ، هل يمكن لي القدوم الى المعادي .؟ ولكن ، بالطبع .! وفي المساء يذهب الى سريره ويقرأ : الملك لير ، او بيركهارت ، ثم يستمع الى هاري بيلافونتي .. وينام (١) ...

حياة عادية خالية من اي شيء مميز ، قد تكون حياتك ،

او حياته ، فيها بعض الاشياء والمسرات الجميلة ، ولكنها مترعة قبل كل شيء بالعواطف وبالعادة ، ابوك يقول لك : لا تشرب الخمر .! بعضنا لا يذوقه مدى الحياة والبعض الاخر ، يجرب التبغ مع الخمر ايضا ، وها هنا ينشأ بالضرورة تقسيم للخبرات الموروثة نتحدث عنه بعد قليل.

الاطفال الصغار اكثر منا حرية . لانهم يتعلمون بالتجربة اكثر مما يتعلمون بالنصيحة ... كم من مرة نقول لهم : لا تجتازوا الطريق الا بعد التأكد من خلوه ..! ولكنهم يندفعون كالقذائف من طوار الى طوار ، بدون تفكير ، وفي يوم ، تفرمل احدى العربات بشدة بالقرب منه ، او تصدمه صدمة رقيقة ، او تصدم صبيا اخر ، فيهرب هو مصفر الوجه ، زائع النظرات ... ويالها من تجربة .! انظر اليه الان .. انه لا يمد قدمه الى ما تحت الطور الا بعد ان يتأكد من خلو الطريق الى عشرة كيلومترات ... اما نحن الشباب الذين نضع شاربا هنا ، او لحية عنترية هناك ، لنثبت للاخرين اننا اصبحنا رجالا ، فلا نصدر عن مثل ما يصدر عنه الاطفال من تلقائية وحرية ..

الطفل يريد ان يجرب كل شيء . اما نحن فنقبل كل شيء . صحيح ان الشاب الان ، هو الطفل بالامس ، ولكنه صحيح ايضا ان نضج الطفولة وحريتها وتطلعها ، تختفي في المرحلة الثانية ، ليظهر النفاق الاجتماعي ، وغرائز الطاعة ، والتميع في عادات المجتمع ..

انت ولدت الليلة فحسب ، من ابوين مسلمين . ها هو احد الملائكة يحملك على جناحه ، ويضعك برفق في سرير احد الوثنيين على الزامبيزي . يقوم الزنجي في الصباح ويجدك . وقد يكون للرجل ابناء او لا يكون . المهم انك اصبحت ابنه . وبعد عشرين عاما ، اعد النظر الى نفسك : ها انت ذا ، تعبد الها اسود الوجه قد كله من الابنوس ، واسنانه الناصعة من العاج . وها انتذا تنحني له صباح مساء ، وتطلب اليه في مذلة حقيقية ان يعينك في الزواج من ابنة شيخ القبيلة .. هاانتذا تصبح زنجيا حتى منابت شعرك ، بالرغم من بياض بشرتك او صفرتها ..

ما الذي يمكن له ان يخبرك هناك ، في معقلك الجنوبي ، على تخوم الارض السوداء ، من الذي يمكن له ان يقول لك : انت تعبد آلها مزيفا .؟!

لقد اصبحت اسيرا لخبرات الرجل الافريقي الاسود . فلا فائدة من تحويلك . وتمضي حياتك على النحو الذي مضت عليه حياة الالاف من ابناء هذه القبيلة : لقد اصبحت مغلقا كدائرة ..

العقل هو الوقفة الصغيرة التي تقول لك : كلا ..! انك لست على صواب . ان الصواب هو كذا .. وللعقل هذه القدرة المدهشة على التمييز لانه يعرف الفرق بين الحسن والخبيث .

ولكن ، كيف يتأتى للعقل ان يعرف الفرق بين الحسن والخبيث ، اليس بخبرات السابقين ؟..

لقد اعترفنا بان بعض الناس لا يستعملون العقل لانهم يخشونه . وهذا الخوف يعطل حيوية هذا الكائن المدهش، ويقتله بعد مضي اعوام . في حين تنمو ، من الجهة المقابلة، قدرة غريزية صلبة بالتبعية ، فبقدر ما يقول العقل : لماذا؟ تقول هذه القدرة : الولاء .. انني انقاد ..!

التجارب والخبرات التي منحنا اياها الاخرون تنقسم الى قسمين : أ ـ الخبرات العملية : وهي التي اذا شككنا فيها ، يمكن لنا بتجربة بسيطة ان نعيد ايماننا . (الارض مستديرة) كيف .؟ من قال هذا .؟ وفي دروس الجغرافيا اربعة ادلة هامة يمكنها ان تخرس الالسن ..

ب ـ الخبرات النظرية : والتي لا تخرج عن الحكم والخرافات والاساطير والحكايات والاخلاقيات التي حاول اجدادنا ان يفسروا بها كل شيء ، وان يضعوا للحياة نصابا .. (المسيح احيا لعازر من الموت ..) احياه من الموت ؟! كيف .؟ والجواب هو ، انها قدرة الله .. او ارادته ، او معجزة المسيح .. او .. او .. ولكن العقل لا يقتنع بالضباب ، وهو يصر : يحيا رجل بعد ان مات ؟. من قال هذا ؟ والجواب هو : التاريخ بالطبع . أن اجدادنا لا يكذبون ..

ولكن ذلك مستحيل . اعني انه يستحيل ان ترد الروح

(1) بالامكان ايراد امثلة اسوأ من ذلك تعيش بالعادة فقط ، ولكنني اجرب انموذجا وسطا ، مخافة ان يدعى على بانني انقد ظاهرة باللجوء الى شدتها العليا ...

الى وجل بعد الوفاة . اولا ، لان الروح ليس طائرا له حرية الدخول والخروج ، ولانه مربوط الى الجسد ، فلسنا نعرف جسدا بدون روح (اللهم الا الميت) ولسنا نعرف روحا بدون جسد . وثانيا ، لان هذه التجربة (الاحياء بعد الموت ..) مستحيلة عمليا للان ، وغير قابلة للتجربة. العقل يقول : والنتيجة ، هي ان التاريخ يكذب ... ان تكون انت ، يعني ان تنظر الى الخبرات السابقة ، وتنزع عنها القشرة الماكرة ، وان تتفحصها ، ثم لك بعد ذلك ان تقول : هذا خطأ ، او صواب ، انا انتمي او لا انتمي ..

والمعلومات الكثيرة التي حشيت بها ادمغتنا تحتاج هذه الوقفة القصيرة .ان الاطفال الصغار يصدقون حكايات الغيلان ذوي الاعين الواحدة ، والعفاريت التي تشوي الرجال وتأكلهم على السفافيد ، والجن الذين يأتمرون برغبات الملك العظيم سليمان ، يصدقون هذه الخرافات لانها تمت الى النوع الثاني من التجارب (اي النظرية) لانها عالية على التجربة ، لانها تتخطاها ويجب ان تؤخذ كما هي ، وهي ليست من نوع التجارب العملية ، كتخطي زحمة الشارع ، او شرب الخمر ..

وسوف تكبر هذه الحكايات والاساطير وتأخذ صورة الدين ، ورفض التعقل ، والجنوح الى اتخاذ الحلول التي وضعها الاخرون ..

الوقفة الصغيرة تعني : واذا كنت الى هذه الدرجة فريدا وخاصا ، الا يعنى ذلك انني حر ؟. ولكن القضية هنا مقلوبة ، فالصحيح هو : انا حر ، لانني الى هذه الدرجة فريد وخاص .! والحرية ليست ان اعمل هذا او ذاك ، او افعل ما يتراءى لي . فقد قلنا ان المجتمع مكون من افراد مثلك ، لهم مطالبهم ورغباتهم واحلامهم ، واذن .. فلو تصادف واصطدمت رغبة لك ، مع رغبة احدهم مثلا، كان عليك ان تحتكم اما الى القبضة والذراع ، وذلك ما يجربه مشجعو نوادي كرة القدم ، او العامة في الطرقات ، واما كان عليك ان تحتكم الى العقل : هذا الفيصل الممتاز الذي يقول لك : كلا .. انك مخطىء ..

ولكن : الا يحدث ان ينحاز العقل في صفك ، حتى لو كنت خاطئا .. ؟!

لو حدث ذلك لك ، فاعلم اذن بان من نصحك هو عاطفتك او شيء اخر ، لان العقل لا يكذب ابدا .. ومن جهة اخرى يستحيل ـ عمليا ـ ان نضع حدا بين العقل والعاطفة ، يمكننا ، بعد الحكم على قضية ما ، بان نقول ان حكمنا عقلي او عاطفي ، لان التمييز يحتاج الى فسحة من الوقت تعقب عملية الحكم ..

(وذلك لان تلقائية السلوك تتمازج فيها العقلية والعاطفية، بقدر ما يتمازج فيها الانخداع والغرائز ..)

اذن كيف نعرف ان العقل هو الذي يتكلم الان مثلا .؟ ولنذكر مثالا :

نجحت في الاختبار الثانوي .، وها انتذا تعد نفسك للجامعة .. امامك كليتان تفضلهما ، بالرغم من الفارق الكيفي بينهما : الحقوق . الاداب .

مرة تقول لنفسك : الحقوق ، لان عمي محام ناجح ، ومرة تقول : الاداب ، لانني احب طه حسين. في الاختيارين انت عاطفي وعقلي وغرائزي ومساق . .

ولكنك اذا جلست فوق خضرة النجيل الازرق الاخضر ، وقضمت في فمك احدى هذه الشرارات الحية ، واخذت تقول : ان مواد الدراسة في الحقوق هي القوانين والمواد ، والشروحات على المواد والقوانين ، مما يضايقني ، لانني لا استطيع ان احفظ نصا واحدا ، ومن ناحية اخرى لا استطيع بلع القانون المدني ، والفرنسي ، والشريعة و .. و ... اما مواد الدراسة في الاداب ، فانا املك معظم المراجع ، والادب لون مفضل عندي (١) .. اذا قلت ذلك فانت تفكر .. وانك اذن لعلى الصراط المستقيم .

ان العقل يعني تفتيت القضية ، وسحبها ، وجرها على الارض ، وتكوينها ، وسحقهاوتليينها ، واسالتها ، وتمزيقها، ورفسها .. ثم اذا كانت ما تزال سليمة بعد ذلك ، فهي قضية منضبطة ومنطقية (لا اتكلم الان عن البداهة ، فلها اعتبار اخر ..)

كلنا نعيش بالعادة ، بدفعة الحياة السابقة ، بوقود الماضي . كقاطرة توقفت محركاتها الخاصة ، تدفعها احدى القاطرات القديمة . نحن هذه القاطرة الحديثة المعطلة : في داخلنا الموقد ، في داخلنا الالات مشحمة وجاهزة . نملك امكانية الانطلاق .. انما نحتاج الى الوقفة القصيرة للتزود بالوقود ، ثم الانطلاق من جديد ..

نحن نحيا بالعادة . ولاقل لك سرا صغيرا : لماذا تضع رباطا للرقبة .؟ صحيح انها عادة غير ضارة .. ولكنه يبقى صحيحا انها عادة غامضة ، وكذلك شعار الرأس ، وخاصة الطربوش والعقال ..

لماذا نحيا بالعادة ؟ لماذا نعطل في ذواتنا المحركات الدافعة ، ونقبل لمحرك قديم ان يجرنا .؟

لماذا لا نسمر حياتنا للحظة صغيرة ، كي يمكن لنا ان نناقش اسبابها وننقد فكرتها .. ؟

لماذا لا نستعمل عقولنا ، فنسأل دوما : لماذا .؟؟

هل لاحظت البرنامج القرآني في صلاة الجمعة .؟ انه ترديد ابدي لسورة اهل الكهف .. لماذا .؟ لان ذلك كان تقليدا منذ الدولة الفاطمية مع ان الكتاب المقدس يحمل كله عبرا وعظات كأهل الكهف .؟

القضية ان التقليد تقليد ، ولا يجوز ان نتراجع عنه .. وبعبارة اخرى « الولاء .. انني انقاد .. » ان ملايين النصوص والاعتبارات تسيرنا في حياتنا ، لاننا لا نقف لنزيل الجامد والثابت والملتف حول اقدامنا والذي نخشى ان يكون عامل سقوطنا في يوم ما ..

لماذا لا تقف ـ مرة واحدة ـ لتناقش حياتك ، وتنقذها؟

« يتبع » القاهرة : **محيي الدين محمد**

---

(١) تلاحظون ان العقل هنا ، يستخدم حتى العاطفة ، ليكون الحكم كليا وشاملا وحقيقيا .